﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾ [النّساء: 172 - 173]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يستنكفُ الملائكةُ عن العبوديّة لله، فكيف يستنكفُ عنها المسيحُ؟

لَمّا أَقامَ الحُجَّةَ على أَنَّ عيسى رسولُ الله، وكلمتُه وروحٌ منه، ولا يصحُّ بحالٍ أَنْ يكونَ ابْنًا لله، مهما أُوتي منَ الإخبار عَنِ المُغَيَّبات، أو أتى بِخَوارِقِ العادات، أخبَرَ عنه أنّه عبدٌ لله، ولا يأنَفُ من هذه العبوديّة، وكذلك الملائكةُ المقرّبونَ الّذين هم أكملُ حالًا في العلوم والقُدرة لا يَسْتَنْكِفون عَنْ عُبودِيَّةِ الله، فَكَيْفَ يَسْتَنْكِفُ المَسيحُ عَنْها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الاستنكافُ الأنَفَةُ منَ الشّيء والإعراضُ عنه

1) ﴿يَسۡتَنكِفَ﴾: الاستنكافُ: الأنَفَةُ منَ الشّيءِ؛ أي لن يَأْنَفَ، وأصلُه في اللّغة من نَكَفَ الدَّمْعَ، إذا مسَحَه بأُصبعِه عن خدّه، ونحّاه أنَفَةً مِنْ أنْ يُرى أثَرُ البُكاء عليه، أو من النَّكَف: جَمْعُ نَكَفَةٍ، وهِيَ غُدَّةٌ في أَصْلِ اللَّحْيِ، ثُمَّ قيسَ عَلى هَذا فَقيلَ: نَكِفَ مِنَ الأَمْرِ واسْتَنْكَفَ، إذا أَنِفَ مِنْهُ؛ وكأنّه لَمّا أَنِفَ أَعْرَضَ عَنْهُ، وأَراهُ أَصْلَ لَحْيِه، كما يُقالُ أَعْرَضَ إذا وَلّاهُ عارِضَهُ، وتَرَكَ مُواجَهَتَهُ، والأَنِفُ مِنْ هَذا، كَأَنَّهُ شَمَخَ بِأَنْفِهِ دونَهُ[2].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/273.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/136، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نكف)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/239، وابن الهائم، التّبيان، ص: 145.

2) ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾: جمع مقرَّب: اسم مفعول من قرَّب مأخوذ من قُرب: وهو خلاف البعد، يقال: قَرُبْتُ منه أَقْرُب وقَرِبْتُه أقرَبُهُ قُرْبًا وقُرْبَانًا، وقرَّب الشَّيْء قرَابَة وقربا وقربة وقربى ومقربة دنا فَهُوَ قريب وَيُقَال قرب مِنْهُ وَقرب إِلَيْهِ ويستعمل القرب في المكان وفي الزمان، وفي النِّسْبَة، وفي الحِظْوَة، والرِّعاية والقُدْرة[1].

3) ﴿وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾: الاستكبارُ: طلبُ التّكبُرِ لغيرِ استحقاقٍ، والكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ تتقارَبُ في المعنى، فالكِبْرُ: العَظَمَةُ، وهي إعجابُ الإنسانِ بنَفْسِه، وذلك أن يَرى نفسَه أكبرَ من غَيْرِه، والتّكبُّرُ يوصَفُ به مَن يتَشَبّعُ بما لَيس لَه، ولا يَملِكُ مُؤهّلاته، ويتَكَلّفُ ذلك، وهذا في أوصافِ النّاسِ كقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: 35]، وأعظمُ التّكبّرِ التّكبّرُ على اللّه بالامتناعِ منْ قَبولِ الحَقّ، والإذعانِ له بالعِبادَةِ.

الاستكبارُ افتعالُ التّكبُرِ لغيرِ استحقاقٍ، تعاليًا وفخرًا

والاسْتِكْبارُ أن يتحَرّى الإنسانُ، ويطلبَ أن يصيرَ كَبيرًا، ويتَشَبّعَ مِن ذلكَ فيُظهرَ مِن نفسِه ما لَيس لَه، وجميعُ ما وَرَدَ في القرآنِ العظيمِ منَ الاستكبارِ من هذا النّوعِ، كما قالَ تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لن يَأنَفَ المسيحُ أو يتَعاظمَ أو يتَرَفّعَ أن يكونَ عبدًا للّه، فإنّ أوّلَ كلمةٍ جرى بها لسانُه وهو في مهْدِه: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 31]، كما لا يَستنكِفُ الملائكةُ المقرّبُون منَ اللّه ﷻ أن يكونُوا عبيدًا للّه، يُقرّون بعُبوديّته ويُذعِنون له، ومَن يستنكفْ عن عبادةِ اللّه، ويستكبرْ عن طاعتِه وطاعةِ رسُلِه، فموعِدُهُم الحشرُ بين يدَيه، يومَ يبْعَثُهُم جميعًا

المسيحُ عبدُ الله ورسولُه، ولن يستنكفَ عن العبوديّةِ لله الواحدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، المعجم الأوسط: قرب.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، السّمين، عمدة الحُفّاظ: (كبر)، والزّاغب، تفسير الزّاغب: 4/240.

فيُنَبِّئُهم بما عملوا؛ فأمّا الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، وعَبَدوا اللّه حَقَّ عِبادتِه، فإنّه يُوَفّيهم ثوابَ أعمالِهم وافيًا تامًّا، ويضاعفُ حسناتِهم أضعافًا مُضاعَفَةً، ويَزيدُهم من واسعِ فضْلِه، مِمّا لا عَيْنٌ رَأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بشَرٍ، وأمّا مَن أَنِف وامتَنَع واستَكْبَر عن عِبادَتِه، فيُعذِّبُه اللّه عَذابًا مُؤلِمًا، ولن يَجِدَ له مَن يتَولّاه، أو ينْصُرُه من دونِ اللّه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستنكافُ من أمراضِ القُلوبِ التي تصُدُّ عنِ الحقّ:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾: الاستنكافُ عملٌ قلبيٌّ؛ وذلك بأنْ يكونَ الإنسانُ عنده أَنَفةٌ وكبرياءُ قلبيَّةٌ تحجزُه عن عبادةِ اللّه، استُعيرَ من نكَفَ الدَّمْعُ، والنّكَفُ: عَمليّةٌ حِسّيّةٌ، تتمَثّلُ في مسْحِ الدَّمْعِ بأُصْبُعِه مِن خَدِّه، مخافةَ أن يَراه النّاسُ باكيًا؛ لأنّ البُكاءَ منَ الرّجلِ يُعَدّ ضَعفًا، أو نَقصًا، فيُحاوِلُ عدمَ إظهارِ دمْعِه للنّاس.

التّنكيرُ في قولِه (عبدًا لله) أظهرُ في العُبوديّة، وأمعنُ في التّواضعِ

وقال بعدها: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، ولم يقُل (عبْدَ اللّه)؛ لأنَّ التّنكيرَ هنا أظهرُ في العُبوديّة، أي: عبدًا من جُملةِ العَبيد، ولو قال: (عبد اللّه) لأوْهَمتِ الإضافةُ أنَّه العبدُ الخصّيصُ (الأخصُّ مِن الخاصِّ)، أو أنَّ ذلك اسمٌ عَلَم له[1]، والجملةُ استئنافيّةٌ، مُقرِّرةٌ لِما سَبَقَ منَ التّنزيه[2].

عطْفُ الملائكةِ على المسيحِ؛ لأنّهم قيلَ عنهم أبناءُ الله، وكذلك المسيحُ:

تخصيصُ الملائكةِ المقرَّبينَ بالذّكر؛ لكونِهم الأرفعَ درجةً، والأعلَى منزلةً

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، عَطَفَ المَلائِكَةَ عَلى المَسيح، ليَشمَل كُلَّ مَن ادُّعِيَتْ لَهُ بُنُوَّةٌ لله، إذ قالوا: (الملائكةُ بناتُ اللّه)، وقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ قَوْلُهُ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، وتَقَدَّمَ أَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومِنْ أَفْضَلِ ما في السَّمَواتِ المَلائِكَةُ، والملائكةُ كانتْ تُعْبَدُ من دونِ اللّه، كما كانَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/59.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/260.

المسيحُ يُعبَدُ كذلك؛ فأخْبَرَ أنّ أولئِكَ الّذين تعبُدونَهم أنتم لم يسْتَنْكِفوا عن عبادتي؛ فكَيف تَسْتنكِفون أنتم!

وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ للمُشركين، وقدْ جاءَ التّهديدُ صريحًا في قوله بعدَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1]، وتكرارُ (لا) النّافيةِ يفيدُ التّوكيدَ في عدَمِ الاستِنكافِ والتّكَبُّرِ.

الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ إيجاز بالحذف، أي ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ عليها[2]، فكان في عطف ﴿وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ على ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ إغناء عن إعادة هذه الجملة، وتركٌ للإطالة بتكرار ما هو ميسور فهمه وقريب إدراكه.

وفي الآية استطرادٌ؛ وهو أن يشْرَعَ المتكلّمُ في شيءٍ من فُنونِ الكلام، ثمّ يسْتمرُّ عليه فيَخرُجُ إلى غَيره، ثمّ يَرجِعُ إلى ما كان علَيه من قبلُ[3]، فأوّلُ الكلامِ ذكَر فيه الرّدَّ على النّصارى الزّاعمين بُنُوَّةَ المسيحِ، ثمَّ استَطْرَدَ في الرّدّ على العربِ الزّاعمين بُنُوَّةَ الملائكةِ[4].

طِباقُ السّلْبِ بين قوله: ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ وقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾:

الفرقُ بين الاستنكافِ والاستكبارِ في الآيةِ

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، الاستنكافُ: هو التّكبّرُ والامتناعُ أنَفَةً؛ فهو أشدُّ منَ الاستكبارِ، ويتمثّلُ الاستنكافُ بعدمِ الإقرارِ بالعبوديّةِ، والاستكبارُ بعدمِ القيامِ بالطّاعَة تكَبُّرًا، وفي قولِه تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ و﴿يَسْتَنكِفْ﴾، طِباقُ السّلْبِ.

عودةُ الضّميرِ في قوْلِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾، إلى مقدَّرٍ معْلومٍ، دلَّ عليْه المُفرّعُ عليْهِ:

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، الضّميرُ في قَوْلِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عائِدٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/430، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/60 - 61.
(2) الزمخشري: 1/597، والكشاف الرازي، مفاتيح الغيب: 11/273، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/145.
(3) العلويّ، الطّراز: 3/8.
(4) السّيوطي، معترك الأقران: 1/47.

إلى مقدَّرٍ مَعْلوم مِنَ المَقام، أَيْ فَسَيَحْشُرُ النّاسَ إِلَيْهِ جَميعًا، دَلَّ عَلَيْهِ التّفْصيلُ المُفَرَّعُ عَلَيْهِ وهو قَوْلُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كأنّه قال: ومَن يَستَنكفْ عن عِبادته ويَستكبرْ، ومَن لم يَسْتنكفْ عن عِبادته ولم يستَكْبِر؛ فسَيحشُرُهم إليه جميعًا[1]، وهذا اكتفاءٌ؛ وهو أن يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَيْن، بَيْنَهُما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فَيُكْتَفى بأَحَدِهما عنِ الآخر لنُكتةٍ بلاغيّة[2]، وتقديمُ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾، يفيدُ الحصْرَ، أي: إلَيه وحدَه لا إلى غيره، و﴿جَمِيعًا﴾: مِن ألفاظِ التَّوكيد.

دلالةُ ﴿فَأَمَّا﴾ الشّرطيّةِ التّفصيليّةِ على التّوكيد، بعد فاءِ الفصيحةِ:

﴿فَأَمَّا﴾: الفاءُ فاءُ الفصيحةِ، و(أمّا): حرف شرطٍ وتفصيلٍ يفيدُ التّوكيدَ؛ فأمّا الشّرطُ للزومِ الفاءِ بعدَها، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضّحى: 9]، وأمّا التّفصيلُ لِما أَجْمَلَه المتكلِّمُ وادَّعاه المخاطَبُ فهو غالبُ أحوالِها، كقولِه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79]، وقدْ تأتي لغيرِ تفصيلٍ أصْلًا نحو: (أمّا زيدٌ فمُنطَلِقٌ)، وأمّا التّوكيدُ فقد ذكَره صاحبُ الكشّاف بقوله: (أمّا) حرفٌ فيه معنى الشّرطِ، ولذلك يُجابُ بالفاءِ، وفائدتُه في الكلامِ، أن تعطيَه فضلَ توكيدٍ، تقول: (زيد ذاهب)، فإذا قصدتَ توكيدَ ذلك، وأنّه لا محالةَ ذاهبٌ، وأنّه بصددِ الذّهاب، وأنّه منه عزيمةٌ، قلتَ: (أمّا زيدٌ فذاهبٌ)، ولذلكَ قالَ سيبويهِ في تفسيره: مهما يكُنْ مِن شيءٍ فزيدٌ ذاهبٌ، وهذا التّفسيرُ دلَّ على فائدتَين: بيانِ كونِه توكيدًا، وأنّه في معنى الشّرطِ[3].

الجزاءُ لصنفين (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) و(الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا)

تقديمُ الثّوابِ على العقابِ، تفضيلًا للأخيارِ، وحسرةً على الأشرارِ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هذا بيانٌ للفريقِ الّذي لم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/430، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/61.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/242.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/137، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/117، وصافي، الجدول: 6/259.

يُذكَرْ في الإجمالِ السّابقِ (وهو الفريقُ الّذي لم يَستَنْكِف)، قُدِّم على بيانِ حالِ ما يقابلُه؛ إبانةً لفضلِه، ومسارعةً إلى بيانِ كونِ حشْرِه أيضًا معتَبَرًا في الإجمالِ، وإيرادُه بلفظِ الإيمانِ والعَملِ الصّالحِ، لا بوَصفِ عدمِ الاستنكافِ والاستكبارِ؛ للتّنبيهِ على أنّه المُستَتْبِعُ لما يَعْقُبُه منَ الثّمَرات[1]، فالإيمانُ والعملُ الصّالحُ أساسُ العبادةِ للّه؛ والعملُ يُصَدّقُ الإيمانَ.

دَلالةُ إيرادِ عبارةِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، دون عدمِ الاستنكافِ والاستكبارِ

وقَدَّمَ ثَوابَ المُؤْمِنينَ عَلى عِقابِ المُسْتَنْكِفينَ، تقديمَ تفضيلٍ؛ ولِأَنَّهُمْ إذا رَأَوْا أَوَّلًا ثَوابَ المُطيعينَ، ثُمَّ شاهَدوا بَعْدَهُ عِقابَ أَنْفُسِهِمْ، كانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ في الحَسْرةِ[2].

أصلُ الدّلالةِ في التّوفيةِ، في قولِه: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾:

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، والتّوْفِيَةُ أَصْلُها إعْطاءُ الشَّيْءِ وافِيًا، أَيْ زائِدًا عَلى المِقْدارِ المَطْلوبِ، ولَمّا كانَ تَحَقُّقُ المُساواةِ يَخْفى لِقِلَّةِ المَوازينِ عِنْدَهُمْ، ولِاعْتِمادِهِمْ عَلى الكَيْلِ، جَعَلوا تَحَقُّقَ المُساواةِ بِمِقْدارٍ فيهِ فَضْلٌ عَلى المِقْدارِ المُساوي، أُطْلِقَتِ التَّوْفِيَةُ عَلى إعْطاءِ المُعادِلِ، وتُقابِلُ بالخُسرانِ وبالغَبْنِ، قالَ تَعالى حِكايَةً عَنْ شُعَيْبٍ: ﴿۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشّعراء: 181]، ولِذَلِكَ قالَ هُنا: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وهَذِهِ التَّوْفِيَةُ والزِّيادَةُ يَرْجِعانِ إلى تَقْديرٍ يَعْلَمُهُ اللّه تَعالى[3].

التّوْفيةُ أُطلقتْ على إعْطاءِ المُعادِلِ، ويقابِلُها الخُسرانُ والغَبْنُ

جناسُ الاشتقاقِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

﴿أُجُورَهُمْ﴾: بيانُ مِنَّةِ اللّه ﷻ؛ حيث سمَّى الثّوابَ أجرًا، كأنّه استأجَر أُجراءَ يعملونَ فيأْجُرُهم، مع أنَّ فائدةَ العَملِ، تعودُ للعاملِ نفْسِه، لا لِمَن دفَعَ الأجْرَ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/61 - 62.

عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مُؤلِمًا شديدَ الإيلام، بما وجَدوا من لَذاذةِ التّرفُّعِ والتّكبُّرِ[1]، وفي قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾ جناسُ الاشتقاق، وفي قولِه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تفصيلٌ مُتّصلٌ، وهو كلُّ كلامٍ وقعَ فيه (أمّا، وأمّا)[2].

من عظيمِ فضلِ اللهِ على العِبادِ استيفاءُ الأجورِ حسبَ الأعمالِ

تكرارُ حرفِ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يفيدُ التّوكيدَ:

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي: لا يَجدونَ حالًا ولا مآلًا، وليًّا قريبًا يتولّى أمورَهم، فيدفعُ العذابَ عنهم، ولا نَصيرًا يمنعُهم منه، والولايةُ تقتضي إخلاصَ المَوَدّة، والنّصرةُ معونةٌ سواءٌ كان معها الولايةُ أو لم تكنْ[3].

الولايةُ والنُّصرةُ لا يجدُها إلّا أهلُ الإيمانِ

وهذا تيئيسٌ لَهُمْ إِذْ قَدْ عُرِفَ عِنْدَ العَرَبِ وغَيْرِهِمْ، مِنْ أُمَمِ ذَلِكَ العَصْرِ، الاعْتِمادُ عِنْدَ الضّيقِ عَلى الأَوْلِياءِ والنُّصَراءِ، لِيَكْفُوا عَنْهُمُ المَصائِبَ بِالقِتالِ أَوِ الفِداءِ؛ ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرآنِ نَفْيُ الوَلِيِّ والنَّصيرِ والفِداءِ، قال تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: 91][4]، وقولُه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: 107]، وقولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشّورى: 8]، و(النّصيرُ): فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ أو مَفْعولٍ؛ لأنّ كلّ واحدٍ من المتناصِرَيْن ناصرٌ ومنصورٌ[5]، وتكرارُ حرفِ (لا) يفيدُ التّوكيدَ، وفصلَ الولاءَ عنِ النّصرِ؛ لأنّه قد يكونُ هناك وَليٌّ، ولا يستطيعُ النُّصْرَةَ، وفي قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/379.
(2) ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، ص: 145.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/243.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/62.
(5) ابن الأثير، النّهاية: 5/64.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، مُقابلةٌ بين حالِ المؤمنينَ وحالِ المستكبرينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الاستنكاف والاستكبار:

الاستنكافُ ليس مجرد الأنفة، وإنما هو الامتناع والانقباض عن الشيء حميَّة وعزة[1]، أو هو التنزه عن السوء ودفعه عن النفس[2] فهو دال على شدة الترفع على الشّيء بتصوّر نقصان فيه، ومنبئ عن الأَنَفَة من لحوق العيب والنقصِ من المستنكَفِ عنه[3]، وأما الاستكبار فهو التّرفّع على الشيء بتصوّر المستكبر رفعةً في نفسه.

فالتعبير بالفعل المنفي ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ في شأن المسيح، لكون النصارى يرَوْن في مقام العبودية نقصًا يلحق المسيحَ، وأن اللّائق بمقامه الترفّع عنه، وهو ما ينسجم مع كون الاستنكاف أصله النَّكْف (بسكون الكاف) الدّالّ على التنحية والإزالة لما يُستحيا منه، أو (النَّكَف) الدال على السوء الذي يتنزه الإنسان عن الاتصاف به، فالمعنى على الأول: (لن يأنف المسيح عن العبودية ولن يتنزه عنها فليست مما يستحيا منه ليأنف المسيح عنها كما تزعمون، والمعنى على الثاني لن يتبرأ المسيح من وصف العبودية إذ ليس فيها ما يسوءه ولا يعيبه)[4].

وأما المغايرة بين ﴿يَسْتَنكِفْ﴾ و﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ في توعّد المشركين بالعذاب، فلبيان شمول الوعيد كلَّ صور الامتناع عن عبادة الله؛ سواء منها ما كان لترفع المستنكف عنها وأنفته منها توهما أن

(1) هذا على رأي الخليل ينظر: الخليل، العين: (نكف).
(2) هذا على رأي المبرد، ينظر: تهذيب اللغة: (نكف).
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/549.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 1/625، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1986، 1987، ففيهما بعض المقاربة لما تم تقريره.

فيها نقصا يلحق به، أو سوءا يجب التنزه عنه، أو ما كان لتوهم الرفعة في نفسه بالتكبر على العبادة وإن لم يكن مع هذا التكبر أنفة، فلهذا كان عطف ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ على ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ تأسيسا[1].

الاستكبار والتكبر:

الاستكبار أصلُه طلبُ التكبر بغير استحقاقٍ له وهو: أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ كَبِيرَةً فَوْقَ مَا هِيَ؛ غُرُورًا وَإِعْجَابًا، فَيَحْمِلُهَا بِذَلِكَ عَلَى غَمْطِ الْحَقِّ، سَوَاءٌ كَانَ للّه أَوْ لِخَلْقِهِ وَعَلَى احْتِقَارِ النَّاسِ، وأما التكبر فقد يكون باستحقاق، وذلك إذا كان طلبا لعزة النفس والتلطف عن الأغراض الدنيوية، فلذلك جاز في صفة اللّه تعالى المتكبر، ولا يجوز المستكبر، لأن أفعاله الحسنة – جل وتقدس – كثيرة وزائدة على محاسن غيره[2].

وقد جاءت الآية بالتعبير بـ ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ المتضمن معنى طلب التكبّرِ للإيذان بأن مآلَه محضُ الطلبِ دون حصولِ المطلوب، إشعارًا بأنْ ليس هناك شيءٌ سوى الطلبِ والاستكبارِ، وكأن هؤلاء الكفار يطلبون التكبر والترفع على عبادة اللّه، لكنّ طلبهم ذلك مآله الذل والخسران، فهم مقهورون مربوبون للّه كرهًا إن لم يختاروا العبودية طوعًا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/76، والشوكاني، فتح القدير: 1/625، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1986، 1987.
(2) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: كبر، أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/549، ورضا، تفسير المنار: 6/80.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»